لواء الحمد
مجلة علمية نصف سنوية تعني بالمعارف الإسلامية
السنة الخامسة ـ العدد العاشر (صفر ـ رجب ١٤٤٦)

كلمة التحرير

بسم الله الرحمن الرحيم

١- قيمة ومنزلة المعرفة في أفق الفكر وشاكلة الحياة الدينية أمر بديهي، رغم أنه في العقود والقرون الأخيرة ومع هجوم عواصف الفلسفة الوضعية و تطبيقاتها، حيث تركت تأثيرها علىٰ التعاليم الدينية المهمة، ولكن بالنظر إلىٰ الفكر الالتقاطي، ثم نصوص وحيانية مهمة جداً فيما يرتبط بأولوية المعرفة القلبية علىٰ السلوك الخارجي، وبعبارة أخرى، أولوية عمل الجوانح علىٰ سلوك الجوارح.

وقد خصّص محدثون؛ من قبيل الشيخ الصدوق والعلّامة المجلسي أوّل باب من المباحث التوحيديّة لمعرفة الله تعالىٰ. (كتاب التوحيد، الباب الأول. بحار الأنوار، ج ٣، الباب الأول). وكذلك كتب الفقيه والمحدث الجليل سماحة الشيخ المفيد بخصوص أرجحية الصلاة علىٰ باقي الأعمال العبادّية: «والصلاة؛ عماد الدين بعد المعرفة بالله ورسوله والأئمة الراشدين عليهم السلام» (المقنعة، ص ٣٤) وهذا القبيل من التصاريح الموجزة والمضغوطة العكاس لعشرات النصوص الصريحة و المبنية علىٰ الفهم الديني الدقيق والخالص.

٢- لدىٰ المقارنة بين المعرفة والمناسك الدينية (بما يشمل الواجبات والمستحبّات) تنبغي الملاحظة والدقة الدائمة لتحاشي السقوط في مستنقعي الإفراط والتفريط، الإفراط في العمل القلبي والتفريط في العمل القالبي والظاهري، و إنما الشجرة المثمرة بالفواكه هي ذات الجدور والأغصان السالمة غير المصابة بالآفات.. حيث الجذور لوحدها لا تعطي الفاكهة، كما أن عطاء الغصن لن يستمر من دون جذر سالم.. إن العلاقة الوطيدة

بين الإيمان والعمل الصالح؛ التي ذكرت في آيات القرآن المجيد عشرات المرات مرآة لهذه العلاقة الوطيدة الأكيدة، تماماً كما هي العلاقة بين محبة أهل البيت عليهم السلام وبين الطاعة والتبعية لهم؛ كما تواتر ذلك في الأحاديث والنصوص الشريفة المستفيضة.. وقد صرحوا عليهم السلام مؤكّدين على ضرورة اقترانها معاً، وهما في الحقيقة وجهان لعملة واحدة.

٣- إن زيارات المعصومين صلوات الله عليهم أحد أهم المناسك وأشدّها ضرورة، وهي بطبيعة الحال تشتمل على عدة عناوين من الأوامر الإلهيّة، مثل الإيثار المالي، وتحمل المشاكل النفسية والروحية، والهجرة، وتقبّل أعباء السفر. والمراعاة والتمرّن على آداب المعاشرة مع الإخوان والاخوات المؤمنين والمؤمنات،و عبادة الله سبحانه وتعالى عبر التوسّل بأولياء الله؛ وأمثال ذلك، و هي قسم من هذه الأوامر. وعلى هذا؛ ورغم عدم عدادها من الواجبات، ولكنها - عملاً - توفر للزائر طريقاً معبداً للسير ضمن طبيعة الحياة الفردية والاجتماعية المطلوبة.. ومثل هذه العبادة العظيمة تدعمها معرفة عميقة ورصينة لتصفو وتتشذّب من كل عيب وضرر وآفة... ولقد يتحقق هذا المدعى في حياة الزائر حيث يقول داعياً: «اللهم اجعل محياي محيى محمد وآل محمدٍ، و مماتي ممات محمدٍ وآل محمد».

٤- في كثير من الروايات الخاصة ببيان ثواب زيارة المعصومين عليهم السلام يطالعنا القول الشريف: «... فمن زاره عارفاً بحقّه...» يكون من البديهي أن معرفة المعصومين لا نهاية لها... بمعنى أنه كما هي مقامات المعصومين عليهم السلام في آفاق العبودية الله سبحانه وتعالى لا منتهى لها من الرفعة والكمال، فإن معرفتهم متاح لها أن تتكامل وتتسامى باستمرار. والآية الشريفة القائلة: (... و الذين اهتدوا زادهم هدًى) [سورة محمد صلى الله عليه وآله/١٧] تشير إلى أن تقبل واستيعاب كل درجة من درجات المعرفة تفتح على الإنسان درجة أعلى في مجال المعرفة. ومن جهة أخرى، فإن السقوط في هذا المجال المعنوي يمكن أن يحسب عقاباً على كفران النعمة الخاصة بكل درجة من تلكم الدرجات، كما ورد في القرآن المجيد: «لئن شكرتُم لأزيد نّكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد »[سورة ابراهيم /٧] وقد قال مولانا الإمام الجواد عليه السلام : «نعمة لا تُشكر كسيئة لا تغفر» [نزهة الناظر وتنبيه الخاطر، ص ١٣٧].

٥- لا تخفى الآثار التربوية لهذه الرؤية والقيمة على ذوي العقول الراجحة.. وإن

المراقبة الدائمة والمتواصلة لهذه المعطيات من أبرز تلكم الآثار - كما يتضح مما تقدم.. وإن الخوف و الرجاء المتواصلين في آفاق العبودية يعتبران محصّلتين مهمتين جداً حتىٰ اللحظات الاخيرة من حياة المؤمن العارف... وهذا بحدّ ذاته يعتبر ركناً ركيناً لدىٰ تحقّق التعاليم التوحيدية الهامّة في حياة الإنسان. ومن هنا؛ يكون من الجدير جدّاً أن يكون ذلك الترابط وتلك العلاقة، أي العلاقة فيما بين المعرفة القلبية والعمل القالبي - السلوكي (لاسيما في باب مناسك الزيارة التي يعرفها الناس أكثر من باقي العبادات) محطّ تبيين و نشر و توفيق فيما يحتمل من دخول معايب عليها.. علىٰ أمل أن نبادر بوضع الحلول المناسبة والوقاية المطلوبة دون تعرضها للمضارّ؛ في ذات الوقت الذي تحفظ فيه الأصالة فيما يرتبط بدفع المعايب المشار إليها - لنشهد ثمرات تلك الشجرة الطيبة.. وإن إيضاح هكذا حقائق يعتبر في عداد أهم وظائف ومسؤوليات المحدّثين والمحققين التي لا ينبغي أن يُغفل عنها.. كما لابدّ من وضع المناهج القويمة والجادة بصددها.

٦- نجد في المناسب في: هذه المقالة، وتبعاً لانتشار ثقافة زيارة الأربعين في السنين الأخيرة أن تلقي نظرة علىٰ نص الزيارة الشريفة للامام سيد الشهداء عليه السلام في يوم الأربعين الأليم.. ولا ننسىٰ الضرورة القصوىٰ - في مسار العلاقة الوطيدة بين مناسك الزيارة وجذر المعرفة الأصيلة- للالتفات والاهتمام الخاص بمتون الزيارات؛ باعتبارها عناوين و رؤوساً حيّةً ومشرقة ونافعة.. في حين- ومع وفرة المساعي القيّمة في هذا المسير والمسار - أن ثم خطىً مهمة يجب أن تقطع في هذا الطريق.. نظراً إلىٰ أن متون الزيارات الشريفة بمثابة إعلان حياتي يتضمن كمال المطلوب من قبل أهل البيت عليهم السلام، حيث عمد الأئمة المعصومون صلوات الله عليهم إلىٰ حثّ الزائر علىٰ تقديس لحظات العلاقة حين الزيارة.. فكان لزاماً علينا - ولاسيما المحققون الدينيون - أن لا نفتر عن نشر هذه الثقافة النورانية واعتبارها وتصويرها للمتابعين والمهتمين ضرورة جادّة ضمن الثقافة الدينية.

٧- قد أشير أكثر شيء إلىٰ أن مراعاة الاعتدال والتوازن بين دعائم المعرفة وبين الشعائر والمناسك ضرورة جادة وأساسية.. وللتأكيد هنا على هذا الأمر الهامّ وكخطوة قصيرة ضمن هذا الطريق، نجد من المناسب أن نمرّ على زيارة الأربعين لنستلهم من

نصّها وروحانيتها دروس معرفةٍ... و لنلاحظ أن هذا السند ومع اختصاره، له من الاعتبار المميز سنداً، كما روىٰ الشيخ الطوسي في كتابيه (تهذيب الأحكام، ج ٦، ص ١١٣-١١٤و مصباح المتهجّد، ج ٢، ص ٧٨٨ -٧٩٠) عن الإمام الصادق عليه السلام .. وقد ترأىٰ لي - أنا العبد الفقير- من هذه السطور عشرة محاور من دروس الزيارة الأربعينية الشريفة. (بناء على نقل الطوسي في الكتابين المذكورين)

ورعاية للاختصار في هذه المقالة، نذكر تحت كل عنوان بعضاً من الوثائق المرتبطة بها.. فيما نوكل الوثائق الأخرىٰ وتفصيل المطالب لكل واحدة فى العبائر النورانية إلىٰ فرصة أخرىٰ.

٨- العناوين العشرة المذكورة هي كالتالي:

الأول: ايضاح وكشف التحريف الإعلامي الأموي: (وليّ الله وحبيبه، خليل الله ونجيبه، صفي الله وابن صفيّة).

الثاني: معرفة موازين الأعداء: (مَن غرّته الدنيا وباع حظّه بالأرذل الأدنىٰ وشرىٰ آخرته بالثمن الأوكس وتغطرس وتردّىٰ في هواه، وأسخطك وأسخط نبيك وأطاع من عبادك أهلّ الشقاق والنفاق وحَمَلَةَ الأوزار المستوجبين النار).

الثالث: تبيين مقامات أهل البيت عليهم السلام: (أكرمته بالشهادة، وحبوته بالسعادة، واجتبيته بطيب الولادة، وجعلته سيّداً من السادة وقائداً من القادة وذائداً من الذادة، وأعطيته مواريث الأنبياء، وجعلته حجّة علىٰ خلقك من الأوصياء، كنت نوراً في الأصلاب الشامخة والأرحام المطهرة؛ لم تنجّسك الجاهلية بأنجاسها ولم تُلبسك المدلهمّات من ثيابها).

الرابع: استمرار خطّ الإمامة بعد سيّد الشهداء عليه السلام: (أشهد أن الأئمة مِن ولدك كلمة التقوىٰ وإعلام الهدىٰ والعروة الوثقىٰ والحجّة على أهل الدنيا).

الخامس: التولي والتبري باعتبارهما أهم وظائف الشيعة: (فمعكم معكم لا مع عدوّكم، فلعن الله مَن قتلك، ولعن الله من ظلمك، ولعن الله أمّةً سمعتْ بذلك فرضيت به، اللّهمّ فالعنهم لعناً وبيلاً وعذبهم عذاباً أليماً).

السادس: طريقة سيد الشهداء عليه السلام التربوية: (فأعذر في الدعاء ومَنَحَ النصح).

السابع: التسليم للأئمة عليهم السلام ونصرتهم؛ مسؤولية الشيعة المهمة: (قلبي لقلبكم سلم؛ وأمري لأمركم متّبع، ونصرتي لكم مُعدّة حتىٰ يأذنَ الله).

الثامن: الارتباط الدائم بين الزائر والمزور: (اللهم إني أشهدك أنّي ولي لمن والاه و عدوٌّ لمن عاداه).

التاسع: تعاليم الرجعة: (أشهد أني بكم مؤمن وبايابكم موقن).

العاشر: خلاص الأمّة من الجهالة والضلالة؛ هو هدف أصيل لحركة سيد الشهداء عليه السلام: (بذل مهجته فيك؛ ليستنقذ عبادك من الجهالة وحيرة الضلالة).

٩- في هذه الرسالة الموجزة، نبيّن المحور الموضوعي العاشر.. حيث ذكر قول بخصوص مصداق (الجهالة والضلالة) ولكن علىٰ أساس القرائن المختلفة، فإن أهم المصاديق؛ فإن معنىٰ هاتين الكلمتين المرتبط بتعاليم معرفة حجة الله في كل زمان...

فالجهالة تعني التضاد مع العقل (بما هو أشمل من «فقدان العلم»)

ومواجهة المسار الواضح للعبادة الإلهية، كما قال الإمام الصادق عليه السلام في معنىٰ العقل: «ما عُبد به الرحمن واكتُسب به الجنان» (الكافي ج ١ – ص١١) فالعبودية الحقة إنما تكون عن السبيل الواضح للالتفات إلىٰ حجة الحيّ القيّوم، وشاهد ذلك؛ المتواتر من الحديث النبوي، حيث قال: «مَن مات ولم يعرف إمام زمانه؛ مات ميتةً جاهلية» وقد أوضح الإمام الحسن العسكري عليه السلام هذا الحديث ضمن بيان جلي جداً. (كفاية الأثر، ص ٢٩٦).

والضلالة من حجتها هي الأعراض عن معرفة حجّة الله في كل زمان، كما يؤيد ذلك ما ورد في نصوص أدعية كثيرة، ومنها: «اللهمّ عرّفني حجّتك، فإنّك إن لم تعرّفني حجتك؛ ضللت عن ديني» وهو دعاء للإمام الصادق عليه السلام (الكافي، ج ١، ص ٣٣٧. كما ورد عن الإمام المهدي عليه السلام في كتاب كمال الدين، ج ٢، ص ٥١٢).

ولا حاجة إلىٰ التذكير بأن المعرفة مصطلح مقارن للاعتراف، وهي العلم الممزوج بالعمل والمتطابق دوماً للإيمان القلبي العميق، لا ذلك العلم المجرّد عن المسؤولية...

١٠- وعلىٰ هذا؛ يتأكد أن الهدف الأصل لنهضة الإمام الحسين عليه السلام كان إنقاذ الناس - على مرّ الزمان - من الغفلة عن معرفة إمامهم.. وإن وضوح هذا الهدف المذكور في نصّ زيارة الأربعين المعتبرة الواردة عن الإمام الصادق عليه السلام من شأنه أن يصحّح نظرتنا التاريخيّة تجاه (واقعة عاشوراء) ومن جهة أخرىٰ؛ يكشف عن مسؤولياتنا في هذا العصر وفي كل عصر، حيث يلزمنا التقدم بخطانا نحو معرفة ونصرة إمام زماننا عجل الله تعالىٰ فرجه الشريف، وأن نكون علىٰ استعداد دائم للانضمام إليه في مساره حين الظهور، ناهيك عن لزوم مبادرتنا إلىٰ المشاركة في التمهيد لظهوره المبارك وإنّنا لنشهد في عبارة أخرىٰ من عبائر زيارة الأربعين الشريفة بهذه الحقيقية التي هي أوضح من الشمس في رائعة النهار؛ حيث نقول: « قلبي لقلبكم سلم؛ و أمري لأمركم متّبع، ونصرتي لكم معدّة حتىٰ يأذنَ اللهُ...»

وهذا الإذن الإلهي هو ذاته الذي دعا به إمام العصر عجل الله ظهوره المبارك ربّه المتعال قائلاً: « اللهمّ أنجز لي ما وعدتني» (من لا يحضره الفقيه، ج ٢، ص ٥٢٠).

نسأل الله تعالىٰ أن يستجيب دعاء إمامنا في ظهوره الكريم ودعاءَنا لمضاعفة معرفة سيدنا العظيم، وأن يكرّس فينا التسليم له، وأن يوفّقنا دوماً للاستعداد لنصرته عليه السلام، آمّين ربَّ العالمين